سيقوم مع اناستاسيا ومع ابنه بحج صعب في الشمال الى معبد القديس سيريل بالقرب من كيريلوف . وفي اليوم التالي كانت الحمى قد زالت ونهض من سريره سليما معافى .

كان المرض الذي عانى منه يعرف في ذلك الوقت باسم « الحمى الحارة » التي لم تكن مفهومة ولا معروفة العلاج . ولقد كان شفاء القيصر مفاجئا كما كان مرضه .

وبعد أن تم للقيصر الشفاء كان مليئا بالتسامح والحب فجزى الخير بالشر . فرفع والد أرداتشيف الى رتبة بويار لأنه تصرف مثلهم وينبغي أن يكون منهم . أما الكسي أرداتشيف وسيلفستر « اللذان أرادا مثل هيرود تدمير أطفالي » فقد سامحهما في الظاهر . وتقدم الأمير فلاديمير اندريفتش الى إيڤان مترددا يهنئه بعودة صحته اليه فداعب القيصر رأسه وعامله كأن لم يبدُ منه ما يغضب . وعندما رأى بقية البويار القيصر في مثل هذا المزاج الرائع المتسامح هرعوا يتملقونه بدورهم وحمدوا الله على شفائه . وأخذ إيڤان يفكر : فقد كان يعرف من كانوا أعداءه حتى اليوم : إنهم البويار !.

أما تطلعات القيصر المستقبلية فكانت تختلف عما أبداه من تسامح لأنه كان قد أضاع ثقته بألكسي أرداتشيف كما أضاعها بسيلفستر إذ أحزنه ما أظهره من عدم الولاء . وشعر بعزلته كملك وتجمدت عواطفه تجاه الآخرين . ومثل هذا الطبع المرضي الورع كان بحاجة لمؤثر ملطف في علاقاته الاجتماعية . ولم يكن يستطيع أن يغمض عينيه أو يخدع نفسه وكانت أناستاسيا تمنعه من النسيان لأن أرداتشيف وسيلفستر قد أرعباها ولم تعد تطيق أن يبقيا محل ائتمان زوجها .

ومع ذلك فقد كان الله رحيما وأعاد العافية للقيصر . وكان على إيڤان أن يفي بنذره بالحج مع عائلته . ويعتقد البعض بأنه كان قليل التبصر بالابتعاد عن موسكو ورعاية شؤون الدولة في تلك اللحظة بالذات . فقد كان عليه أن يهتم بتسوية الأوضاع الخطرة في قازان . لذلك سادت